

ذكريات شموع الروضة (9)

مرثية القلب

في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

صغير بن محمد الصغير

ذكریات شموع الروضة (٩)

مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي.

صغیر بن محمد الصغیر

شوال ١٤٤٦هـ



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي.

بسم الله رب يسر وأعن وبارك يا كريم.

مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي.

اثنان وعشرون عامًا.. يا أبا سامي.. وما زال غيابك
كما هو... لا يتقدم .. لا يُنسى.. لا يضعف..
كأنك غادرت الأمس، وكأنّ الدار ما زالت تنتظر
صوتك، خطواتك، ضحكتك التي كانت تملأ المكان
دفئًا، وتبعث في الوجوه طمأنينة الأخ الذي يُعوّل
عليه.

يا شقيق القلب... كم مرة ناديتك في خيالي؟!..
وكم مرة بكيتك صامتًا حين أغلق الباب خلفي؟!..
لم تكن شقيقًا فقط ، كنت سندًا في ظهر الأيام ،
وركنًا من أركان الطمأنينة ، وقلبًا إذا حضر سكنت



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

المتاعب.

رحلت باكراً.. قبل أن ترى ثمارك تكبر.. قبل أن تفرح
بولدك الذي يشبهك وجهًا وصوتًا وحتى في طبع
الحياة.

غبت عن عين الدنيا، لكنك لم تغب عنا...
نذكرك في المجالس، .. في الدعاء، .. في القصص
التي نحكيها للصغار، ... في المواقف التي لا يحسنها
إلا من تربى على يديك.

واليوم... الليلة تحديداً ... تسيل الدموع من فرح
ووجع في آنٍ واحد. ابنك، قطعة منك، .. محمد..
يدخل الليلة عالم الزواج، يتسم كأنك تبارك له، يمشي
بثبات كأنك تمسك بيده. ونحن نُبارك له، لكن قلوبنا
تفتش في الزاوية عن مكانك... عن كرسيك الفارغ،



عن دعائك الذي لطالما كان يُدثّرنا في الفرح قبل
الحزن.

آه لو أنك هنا .. لكان الفرح مختلفًا، كانت مباركاتنا
ستخرج بصوت مرتفع.. بلا غصة.. وكانت عيناك
ستدمع كما عودتنا دائمًا... من رقّتك .. من
حنانك.. من فيض حبك لأولادك.. ولنا جميعًا.

لكن يا أبا سامي... ما من غائبٍ كنت أرجو له
الحضور في هذا اليوم أكثر منك. وما من فرحٍ اشتدّ
فيه الحنين كما اشتدّ الليلة. إن في القلب فرحة
بمحمد، لكن فيها حنينًا لا يشبهه حنين، لأنك لست
بيننا جسدًا، وإن كنت فينا روحًا لا تزول.

محمد كبر... أصبح رجلًا يُشرفك، يسير على خُطاك
في برّه، في حيائه، في أدبه، وكل من يراه يقول: "رحمك



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

الله... كأنك لم تَغِب، فإنما بقيت فيه حيًّا.

في زفافه الليلة، نرفع أكفّ الدعاء، ونرفع أعيننا
للسماء، ونسأل الله الذي وسعت رحمته كل شيء، أن
يجعل قبرك روضةً من رياض الجنة، وأن يسقيك من
حوض نبينا، وأن يجمعنا بك في دار لا يُفجع فيها
حبيبٌ بحبيب، وأن يوفق ابنك في حياته المقبلة،
وبيارك له في أسرته وزوجه ..

نم قرير العين أبا سامي...

فقد ريت رجلاً أحسبه إن شاء الله سُيرضيك مع
أخوته ، وأورثت اسمًا يُرفع به الرأس، وجمعت بين
الحضور في المدى ، والخلود في القلب.

وما زلنا نحبك... ونفتقدك... ونراك في كل فرح ..
وكل سجدة.. وكل لحظة حنين.



لمن لا يعرف أبا سامي .. فقد فاتته أن يرى الشهامة
في أبهى صورها، والمروءة تمشي على قدمين.. لم يكن
رجلاً عادياً، بل كان خلقاً يمشي بين الناس، حسن
المعشر، طيب النفس، لا يُكلفك أن تحبه، فهو يدخل
القلوب دون استئذان، ويجبر الخاطر كما لو كان خلق
لأجل ذلك.

كان رحمه الله يَألف ويؤلف، يأخذك بوداعته قبل أن
تعرف اسمه ، ويدهشك بتواضعه رغم هيئته.
إذا صافحك بكل قلبه ، وإذا حادثك أنصت كأنك
وحدك في العالم .. لا يُخرج أحداً ، ولا يرفع صوته
على أحد، ولا يعرف للغلظة طريقاً، لكن له من الوقار
ما يُرغم الجميع على احترامه دون أن يطلب.
وأما فزعته ورجولته فحدّث عنها ولا حرج.. إذا نادى



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

منادٍ كان أول من يُجيب، وإن ضاقت بك الدنيا
وجدته واقفًا عند بابك قبل أن تُكمل شكواك. لا
يسأل عن صلة ولا عن مكسب، يكفي أن يعلم أن
لك حاجة ليجعلها حاجته. يُحب الخير.. ويبدله،
ويسعى فيه سعي الواثق بأن الله لا يضيع أجر من
أحسن عملاً.

كان إذا رأى مكلوماً، اشتعلت فيه نخوة لا تهدأ حتى
يُنصفه، وإذا رأى محتاجاً قدّم له ما يستطيع كأنما
يُسدي لنفسه معروفًا.

لم يعرف المساومة على مروءته، ولم يتأخر يوماً عن
واجب، كبيراً كان أو صغيراً.. يُحب أن يُغيث، ويكره
أن يُثقل على أحد، وما طرق بابه ملهوف إلا وخرج
مطمئناً، يدعو له من أعماق قلبه.



رحمه الله رحمةً واسعة..فقد كان من أولئك الذين إن رأيتهم أحببت الخير، وإن جالستهم رقّ قلبك ، وإن عاشرتهم علمت أن الأصل في الرجولة ليس في المظهر، بل في معدنٍ نادرٍ اسمه: الخلق والفرعة.

هكذا كان أبا سامي... وهكذا سيبقى فينا ..

لمن لا يعرف أبا سامي... ، فقد فاته أن يرى الصبر في أنبل صوره ، والإصرار في أصدق حالات، ه.. كان شابًا لا يملك من الدنيا كثير مال، لكنه كان يملك إرادةً من حديد ، وعزيمةً لا تعرف الكلل .. جمع بين العمل والدراسة في وقتٍ ينوء فيه كثيرون عن تحمّل أحدهما ، فكان يكّدّ بيد ، ويطلب العلم بالعقل والقلب معًا، .. ما اشتكى ولا تهرّب، ولا التفت إلى الراحة ، بل جعل التعب جسرًا يعبر به إلى مستقبلٍ



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

يليق بطموحه وكرامته.

يواصل ليله وهمته لا تعرف فتورًا .. لم يستسلم يوماً
لضيق ذات اليد، ولا لعقبات الطريق ، بل نظر إلى
الأمام ، وسار بخطى الواثق بأن الله لا يضيع سعي
الصابرين .

حقاً إنّ في سيرته درساً لأبنائنا بل دروساً عميقة.. لم
يكن صبره مجرد احتمالٍ للضغوط ، بل كان صبراً
مفعماً بالرضا ، جميلاً في خلقه لا يشتكي ، بل كان
يُخفي جهده تحت ستر التوكل، ويُظهر للناس وجهًا
باسمًا، كأنما السكينة صديقته القديمة.

حين تخرّج من كلية أصول الدين .. لم يكن نجاحه
شهادة تُعلّق على الجدار، بل كان قصة كفاح في
التعليم والتدريس للطلاب ، كل سطرٍ فيها يشهد على



رجل صنع مجده بعرقه، وبني نفسه بالحلم والعمل،
وجعل من أيامه حجارةً يرتقي بها، لا عقبات تُسقطه.
رحمك الله أبا سامي... فقد جمعت في صبرك بين
الصمت والرضا، وفي سعيك بين الجدّ والتواضع،
وكنت حجةً ناطقةً على أن من صدق مع الله، بلغه
الله ما يريد، وأعلى ذكره بين الناس.

وما زال صبرك يُحدّث به... ليكون قدوة لا قصة.
رحم الله أبا سامي.. صبر فرحل إلى الله شاباً مكتوباً
— بإذن الله — له أجر الشهداء... فقد كان المرض
ثقيلاً... لكن يعلم الله ما رأيت على وجه أبي سامي
إلا الرضا، ولا في حديثه إلا الحمد، ولا في عينيه إلا
الصبر الذي لا تملكه إلا القلوب المؤمنة.

لم يكن يتأوه ولم يشتك، بل كان يطمئن من حوله



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

وهو في أشدّ الألم ، كأنما يسقيهم السكينة من قلبه،
ويخفي عنهم وجعه كي لا يُتعبهم.

كان إذا اشتد عليه الوجع، تتمم: "الحمد لله"، وإذا
سُئل عن حاله، ابتسم وقال: "خير... عسى الله
يكتب لي اللي فيه صلاح."

كأن الله قد اختصّه بطمأنينة لا تخرج إلا من قلبٍ
أحبّه ربّه، ورفع مقامه بالصبر قبل أن يرفعه بالشهادة.
رحل أبو سامي شابًا.. في عمرٍ كانت الحياة لا تزال
تفتّح أبوابها، لكن لعلّ الله أراد له بابًا أعظم ، إنّه باب
الجنة إن شاء الله. مات مبطونًا ، والمبطلون كما أخبر
النبي صلى الله عليه وسلم شهيد.

فيا لها من خاتمة... ويا له من كرم إلهيٍّ يُجازي من
صبر فأحسن، واحتسب فأكرم، ومات في وجعه كما



يموت أولياء الله .. صامتين.. طاهرين.. مخففين على
أهلهم حتى في رحيلهم.

لم تكن وفاته لحظة حزنٍ عابرة، ... بل كانت علامة
فارقة في قلوب من عرفوه، حتى من لم ييك من قبل،
بكى عليه. لأن مثله لا يُكى لفقد جسده فقط، بل
لطيبه ، لحسن خُلُقهِ ، لصبره ، لضحكته الراضية وهو
في ليل الأ لم الطويل.

رحمك الله أبا سامي... كنت في حياتك قدوة ، وفي
مرضك مدرسة ، وفي موتك شهيداً. وإن عزّ اللقاء
في الدنيا، فحسبنا وعد الله: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ
وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى
الدَّارِ...} [الرعد: ٢٢] {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

صَبَرُوا وَيُلَقُّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) { [الفرقان:

[٧٥

حكاية أبي سامي... ما بين ميلاده ورحيله..هي
ليست مجرد سيرة رجلٍ مضى، بل حكاية نورٍ مضىء
، ترك فينا أثرًا لا يُمحى ، ودروسًا لا تذبل مع الأيام.
وُلد أبو سامي .. عبدالرحمن بن محمد بن فالح الصغير
عام ١٣٧٩هـ، في بيتٍ علم وطيب ونخوة ، وتربى في
كنف والدين غرسا فيه العلم والخلق والدين، حتى
نبتت في قلبه صفات الكبار منذ صغره. كان هادئ
الطبع، جميل العشرة، لا يرفع صوته، ولا يجرح بكلمة،
لكنه إن وقف، وقف بثبات، وإن تحدّث أنصت من
حوله لحكمته.

كبر وكبر معه حُسن الخلق ،



فلم يكن رجلاً عادياً في التعامل ؛ كان مدرسة تمشي
على الأرض، حقاً إنّه مدرسة الأبناء كما كان اسمه
مدرسته التي عمل فيها .. علّمنا أن الخلق ليس موقفاً
عابراً، بل هو أسلوب حياة، وأن الكلمة الطيبة ترفعك
وإن لم تكن غنياً أو صاحب جاه ، ثم إنّ من
صفحات برّه صفحة ناصعة في كتاب حياته...لقد برّا
بوالده و والدته حنوناً على إخوته ..عطوفاً على أهله
وزوجه وأبنائه .. لم يُر منه عقوق ولا تقصير.. بل كان
كالسند، كالحائط الذي يستند إليه كثير من أقاربه
..وفي مرضه كانت خاتمة الحكاية أبهى مما يتخيل
أحد... صبرٌ عجيب ، ورضا نادر، وسكينة ..

رحل في السادس من ربيع الأول عام ألف وأربع مائة
وأربع وعشرين للهجرة ، رحل وما زال أثره باقيّ فينا



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

....

علّمنا أبو سامي.. أن الرجولة خلق ، وأن المجد لا
يُولد، بل يُصنع بالصبر والبر والعلم والتواضع.
وما زالت حكايتك يا أبا سامي تُروى... لأنها لم
تكن حكاية عمر، بل حكاية أثر.

يا لجمال الأقدار حين تعيد لنا ملامح الغائبين في
وجوه من بعدهم... كأنما الحنان لا يموت بل يتوارث
، وكأن الله بلطفه يُعيد إلينا بعض الأرواح الغالية على
هيئة أطفال نحبهم بلا شروط.

عبدالرحمن حفيد أبي سامي ، وابن ابنته .. هو الشبيه
الثاني لذلك الرجل العظيم. تبارك الله .. فيه من
ملاحه .. هدوءه .. ومن عينيه سكونه ، ومن طباعه
بذور تلك النخوة المبكرة التي تتفتح كما تفتحت في



جده. تراه فتتذكر أبا سامي... في خُطاه.. في سكونه
.. في حياته.. في رفته إذا اقترب .. وطيبته إن ابتسم.
فيا أبنائي ليس الشبه في الوجه فحسب ، بل في الروح
التي تورثت ، في الصفاء الذي يورثه الله لعباده ليكونوا
بركة في بيوتهم ، وفي النور الذي يسكن الجباه قبل أن
يسكن الأسماء.

اللهم.. يا واسع الفضل والإحسان، اجعل عبد الرحمن
قرّة عين لأمه وأبيه وأهله وبارك له وبه وعليه ، وارزقه
صلاحًا في دينه ودنياه، وبارك له في عمره ، وعلمه
الحكمة كما علّمت جده، وارزقه من طيب الخلق،
وحسن القلب، وصفاء السريرة ما تجعله امتدادًا لجده
في الأرض، وذخرًا له في السماء ..اللهم اجعله باراً
بوالديه وأجداده ، واذكر أبا سامي بذكره، وارفع منزلته



مرثية القلب... في ليلة فرح ابنك يا أبا سامي

بدعاء أحبّته، واجعل عبدالرحمن من الحافظين
للجميل، المكملين لمسيرة الطيبين، فالأثر لا يُمحى،
والرحمة لا تنقطع، والدعاء لا يخيب.

اللهم: يا واسع الرحمة يا غفور يا كريم.. اغفر لعبدك
أبي سامي.. واغفر لوالديه.. وأشقائه.. اللهم اجعل
قبورهم روضةً من رياض الجنة.. ونورها بنورك..
واملاًها برضاك ورحمتك.. اللهم إن كانوا محسنين فزد
في إحسانهم.. وإن كانوا غير ذلك فتجاوز عن
سيئاتهم برحمتك يا أرحم الراحمين.. اللهم اجعل لهم
من الذكر الطيب في الدنيا ما يُبقي أثرهم.. ومن
العمل الصالح ما يمتد نفعه بعد رحيلهم... اللهم:
اجعل البركة في آثارهم.. والقبول في ذكراهم.. وارفع
درجتهم في عليين، واجمعنا بهم في مستقر رحمتك.



يا رب .. اجعل سيرتهم عطره .. وذكرهم باقياً .. وأثرهم
ممتداً في الدنيا والآخرة.
آمين يا رب العالمين.

وكتبه صغير بن محمد بن فالح الصغير
في يوم زواج محمد ابن أبي سامي ٢٠_١٠_١٤٤٦ هـ

